هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب والزلزلة التي حدثت في اواسط القرن الثاني عشر اليد الطولى في تخريب مبانيها اما ضعفها فابتدأ من حين خربت البلاد التي حولها

ماهية الفلسفة

كان علماء اوربا في الثلث الاخير من القرن الماضي يكرمون الفلسفة كأنها ربّة العلوم كلها وكانت دور العلم في المانيا قاعدة العلوم العليا غاصّة بالطلبة يسمعون اقوال فلاسفتها ويقبلونها كأنها وحيٌ مُنزَّل . وكثر البحث الفلسفي في كل مكان واصحابهُ يحاولون حل المسائل الكبرى مسائل الحياة . واشتاق الناس الى كشف الغوامض واشتدَّ بهم هذا الشوق حتى لم يصبروا على البحث في امور الكون بالتأني فاكتفوا بالاوضاع الفلسفيَّة الباحثة عمَّا وراء الطبيعة

ويتضح ما كان للفلسفة من السطوة على عقول الناس في ذلك العصر من قول فردرك وشر الذي قال ان كل قوى الشبان كانت تصرف الى حل المسائل العويصة ولم يكن الشاب يحسب انهُ بلغ اشدَّهُ ما لم يفهم حقيقة حريَّة الارادة والقضاء والقدر وإلاَّ فلا يحق لهُ ان يتزوَّج

ذلك العصر كان عصر الفلسفة الذهبي لكنهُ كان حاملاً في ارداننه بزور انحلاله . فان الفلاسفة انكبار مثل نختي وشلنج وهيجل حدَّدوا الفلسفة بانها تركيب تصوُّري للكون من مبادئ اولية اكتشفتها بعض العقول الذكيَّة . وجروا مجرى الفيلسوف سبنوزا في استنتاج نتائج عدوها لازمة من اوليات حسبوا ضرورية واغمضوا عيونهم عن شهادة الحواس وحسبوا انهم يستطيعون تعليل المحسوسات بانها نتائج لازمة عن بعض المبادئ الاوليَّة . وقالوا ان لا قيمة للاختبار من هذا القبيل لان غاية ما يستفاد منهُ تحقيق الاستدلال الفلسفي بل ان شلنج انكر عليهِ هذه الفائدة وقال ان الاستنتاج العقلي لا يحتاج اثباتهُ الى اختبار مادي لانهُ ثابت لذاتهِ فان كان الاختبار لا يتطبق عليهِ فالخطأ في الاختبار لا فيهِ . وهيجل لم يتطرَّف الى هذا الحد في انكارهِ فائدة الاختبار لكن اعتمادهُ الاكبر كان على الاستدلال العقلي . وكان اولئك الفلاسفة يحسبون ان لا حدَّ لما يدركهُ العقل فهو يدرك الاوليات كلها بالبداهة ثم يعلم ما يبنى عليها بالاستدلال المنطقي وعلى ذلك بنى نختي وشلنج وهيجل فلسفتهم فجاءت بناء عظيماً فخيماً ولكن لا اساس لها في الارض وما لا اساس لهُ في الارض يتلاشى في الهواء

وبينما كان الفلاسفة الالمانيون واتباعهم يبرهنون بالاقيسة المنطقية ما يجب ان يكونهُ العالم اخذ علماء الطبيعة يحاولون ان يعرفوا ما هو العالم واذا بصفير الآلة البخارية ايقظ اهل

الاحلام والاوهام ونبههم الى التقدُّم العظيم الذي تقدمتهُ العلوم الطبيعية باتِّباعها اساليب البحث والاختبار فقامت القيامة على فلسفة شيجل وأفل نجمها حالاً لان الناس كانوا قد مَلُّوا الابحاث الخيالية وودوا ان يهبطوا من سحب الخيال الى ارض الحقيقة . فانشئت سكك الحديد واتسع نطاق التجارة واقيمت المدارس الصناعية والتجارية واتجهت قوى الناس كلها الى اكتشاف النواميس المادية وتوضيحها واستخدامها وقامت العلوم الطبيعية مقام الفلسفة في اذهان الناس وادخل ليبغ الكيماوي المعامل الكيماوية الى المدارس الالمانية واشتهر الكسندر همبلت شهرة فائقة وشهرتهُ عليَّة محضة وكُشفت الكشفات المهمَّة في فرنسا والمانيا اكتشفها الفسيولوجيون مثل ماروبر وفلورنس ومجندي ولوره ولونجه واضاعت الفلسفة اكليلها واحتقرها الذين كانوا يعبدونها ويتغنون بمدحها وبالغوا في ذمها كما بالغوا قبلاً في اطرائها ولم يبقَ احد يجاهر بصداقتها . وعُرِّف الفيلسوف بانهُ الرجل الذي يتكلم عن امور لا يعلمها كلاماً لا يفهمهُ احد . فانكر علماء الطبيعة كل علاقة لهم بها واستقلوا بانفسهم واغتروا بانهُ يمكنهم نفي الفلسفة من كل المباحث الطبيعيَّة فنسروها تفاسير لا تنطبق على قوانين العقل تفاسير رفضها العقلاء فبلهم منذ زمن طويل وصار المذهب المادي هو المذهب الغالب مع انهُ ابعد المذاهب عن القوانين العقليَّة

امور مثل هذه اضعفت عزائم الفلاسفة والذلُّ ابن الفشل ولذلك لا يُستغرَب ما ظهر من ضعفهم على اثر ما اصابهم من الخذلان حتى اضطرَّ ثنت ان يثبت ان للفلسفة شأنًا ما وانها تستحق ان تبقى بين العلوم

لكنَّ ما حلَّ بالفلسفة من الازدراء كان وقتيًّا الى اجَل محدود لان الميل الفلسفي في الانسان ارسخ من ان يزول منهُ كما قال شوبنهور . واسمى ما في الانسان سؤالهُ عن علل الاشياء ولا يمنع عن هذا السؤال الاَّ منع عقلهِ عن البحث والاستقصاء وهذا امر يعزُّ ادراكهُ ولذلك فالفلسفة ليست ابنة عصر معلوم بل هي ابنة كل العصور وستموت آخر فيلسوف حينما يموت آخر انسان ما لم يكن ذلك الانسان ابله لا عقل لهُ . وما من احد في رأسهِ ذرة من العقل الاَّ وهو يبحث ولو قليلاً عن العالم الذي هو فيهِ ونسبتهِ اليهِ وعلة ما يراهُ والغاية منهُ . ويجيب عن هذه المسائل على حسب ادراكهِ . والعلوم الطبيعية المحضة لا تقوم من غير شيء من الفلسفة ولو انكرت ذلك وحاولت التملُّص منهُ كما تحاول التملُّص من داء خبيث . ألا يوجد شيء من الفلسفة في مذهب النشوء أو لا يوجد في مذهب الجوهر الفرد الذي قال بهِ اولاً فلاسفة اليونان قبل المسيح باربع مئة عام وهل زالت منهُ الفلسفة لان علماء الطبيعة يسمُّونهُ واوضحوهُ . أوَ ليس رد كل الظواهر المادية الى اصليها المادة والقوة امرًا فلسفيًّا مما وراء الطبيعة . أوَ ليس ان مذهب

بقاء المادة والقوّة وعدم تلاشيهما من الامور الفلسفية . أَوَ ليس ان رد كل القوى الى قوة واحدة انما هو محاولة الوصول الى المبدإ الاول الذي يتوقّف عليهِ كل شيء . اي امرٍ اقرب الى الفلسفة من ذلك . ولقد شاعت الآن الرغبة في رد المركّبات والمتخالفات الى ما تظهر بهِ وحدتها وفي ايجاد اصل عامٍّ يمكن ان تعلَّل بهِ حوادث الكون لان هذه الرغبة مغروسة في نفس الانسان وليس في طاقتهِ ان يقاوم ما في نفسهِ من الميل الى توحيد ما يعلمهُ بالاختبار وادراك كل الموجودات وكشف العلل التي تعلل بها حوادث الكون كلها

وقد يستطيع اهل كل علم على حدتهِ ان يكتشفوا الاسباب الاولى لقضايا ذلك العلم وحدهُ ولكنهم لا يستطيعون ذلك الاَّ اذا غضُّوا الطرف عن سائر العلوم فيظهرون حينئذٍ جزءًا من الحقيقة لا الحقيقة كلها . فقد يمكن ان تفسَّر ظواهر الطبيعيات بفرض القوة والجواهر الفردة المتماثلة ولكن هل يستطيع الكيماوي ان يفهم ظواهر الكيمياء من غير ان يفرض ان هذه الجواهر مختلفة الصفات . وهل يستطيع الباحث عن الحياة (البيولوجي) ان يعلل الحياة بالقوى الميكانيكيَّة المحضة او هل يستطيع ان يوفّق بين ما يرَى في الموجودات الحية من دلائل القصد وبين المذهب الميكانيكي . وهل يستطيع الباحث في علم العقل والوجدان ان يفسِّر افعال العقل بمبادىء العالَم الطبيعي اي بالجواهر والحركة . لا بدَّ من علم يجمع هذه العلوم المتفرقة ويوفّق بينها يتناول كل الحوادث الطبيعيَّة ويوحِّدها ان امكن بان يجمع مبادئ العلوم المختلفة ويمحّصها ويقابل بعضها ببعض ويظهر ما تختلف فيهِ ثم يوفّق بينها ان امكن . هذا العلم هو الفلسفة . والحاجة اليهِ ماسَّة وهي ظاهرة لا تخفى وان كان قد قدّر للناس ان يتفلسفوا فيجب ان يحكموا فلسفتهم . ولا يجوز لنا ان نترك حل المسائل المهمة مسائل الحياة ولا ان نحيلها على الصدفة او على اناس لا علم لهم ولا مهارة او هم من الغرض بحيث يحملهم غرضهم على حلها حسب اهوائهم . ومن تعلَّم احسن تعليم وتدرَّب احسن تدريب وصبَّ قواهُ العقلية على موضوع بحثهِ لجدير بحل معضلاتهِ . امور مثل هذه ارجعت الناس الى الفلسفة والناس كلهم في حاجة اليها الاَّ من لا يعقل منهم . ان من يقيس الزمن اللازم لمرور المجرى العصبي في عصب ساق الضفدع لا يستفيد شيئًا من ذلك لان مجرد العلم بالشيء لا يفيد ما لم يبنى عليهِ حكم من الاحكام اي ما لم يُستخدَم مرقاة الى اكتشاف قضية كلية مبنية عليهِ وهذا الامر اي البلوغ الى فلسفة الاشياء والافعال صار شائقًا الآن في كل العلوم الطبيعية والتاريخية بل في العلوم الدينية والرياضية ايضًا

ثم اننا اطلقنا اسم الفلسفة في السطور الماضية على ما يسمَّى بعلم ما وراء الطبيعة او علم

المبادئ الاولى او الاصول الاولى التي تبنى عليها حوادث الكون ولكن الفلسفة لا تقتصر على ذلك بل غرضها اكتشاف الحق او الحقيقة فلا تستطيع ان تعلل ما يُعرَف من حوادث الكون ما لم تعرف كثيرًا من هذه الحوادث معرفة صحيحة وحوادث الكون على نوعين نوع مادي ونوع عقلي ولذلك قسمت العلوم الى قسمين علم طبيعي وعلم عقلي مدار الاول البحث عن الاجسام المادية حيَّة كانت او غير حيَّة وكل ظواهرها . ومدار الثاني البحث عن ظواهر العالم الباطني اي النفس او العقل . و يطلق على علم العقل الفلسفة العقلية او علم النفس (سيكولوجيا) وهي تبحث في تحليل افعال النفس او العقل او الوجدان وتبويبها وتفسيرها وعليها يبني علم المنطق وفلسفة الجمال (استتك) والاخلاق وفلسفة الديانة . ومن مباحثها ماهية الشعور والادراك والتصور والتذكر والهوى والغريزة والاندفاع والانتباه والارادة . كل هذه افعال من افعال العقل او الوجدان . ومن مباحث المنطق فعل العقل وقت الاستدلال والوصول الى القضايا التي يعدها صحيحة وما هي قواعد البحث والاساليب التي يجري عليها العلماء في بحثهم اي ما هي قواعد القياس والاستقراء . وعلم الجمال يبحث عمَّا يجعلنا نحكم بجمال بعض الاشياء او بقبحها بعظمتها او بحقارتها وما هي النواميس والمبادئ التي يبني عليها الاتقان في المصنوعات الجميلة . وعلم الاخلاق يبحث عن مزايا الفضيلة ولماذا نحسب العمل الواحد صوابًا والثاني خطأ وما هو المقياس الذي نقاس به الادبيَّات . نشعر ان بعض الاعمال خطأ او حرام فما هي حقيقة هذا الشعور وما هو اصله وكيف يتمو فينا وبالاختصار ما هي النواميس المتسلطة على العالم الادبي وكيف تظهر في حياة الانسان

ثم ان علم الاجتماع يرتبط بعلم السيكولوجيا وعلم الاخلاق ويقدم لها كثيرًا من الافعال ومعلوم ان مدارهُ فكر الانسان وشعورهُ وارادتهُ من حيث هو عضو حي في جسم الاجتماع الانساني والغاية التي وجد لها في جسم الاجتماع والوسائط التي يستعملها لبلوغ هذه الغاية . والاجتماع الانساني نفسهُ جسم حيٌّ لهُ غاية يسعى اليها ووسائط يستعملها لبلوغ هذه الغاية . فما هي هذه الغاية وما هي تلك الوسائط وكيف تنال الاولى بالثانية وما هي الاجزاء التي يتكوَّن منها هذا الاجتماع ما هي عاداتهُ وقوانينهُ وكيف نشأت وكيف نمت . ذلك ما يسمَّى بعلم السيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني والغاية التي يقصدها هذا الاجتماع لا تنال الاَّ بانتظام الحكومة او الدولة فما هي اشكال الحكومات وكيف تبلغ غايتها . هنا يدخل علم السياسة الباحث عن هذه المسائل ونسبتهُ الى علم الاجتماع الانساني (السيولوجيا) نسبة هذا العلم الى علم النفس (سيكولوجيا)

ثم ان فلسفة الديانة تبحث عن الامور الواقعة ضمن اختبار الانسان التي نعدها دينية فهي من هذا القبيل فرع من علم النفس لكنها لا تقتصر على ذلك بل تبحث عن الاساليب التي تظهر

بها الامور الدينية وتتبع ارتقاء الاديان لكي تكتشف المبادئ الاولى التي تشترك فيها

فعلى الفيلسوف ان ينتبه الى العلوم العقلية الاساسية كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الاخلاق وعلم الجمال وفلسفة الديانة . وهذه العلوم انما تفرق عن العلوم الطبيعية في مواضيعها لا في اساليب بحثها لان العلوم كلها طبيعية كانت او عقلية تبحث عن الظواهر وردها الى النواميس المتسلطة عليها . وما من علم يقتصر على ذكر الناموس او القانون بل كل العلوم تحاول كشف علاقة النواميس بعضها ببعض وربطها بعضها ببعض وردها الى ابسط اشكالها . فالفيلسوف الطبيعي يرد كل ظواهر المادة الى اصل واحد وهو القوة . واما العالم الحيوي (البيولوجي) فيقتدر عليه رد ظواهر الحياة الى الاصول الميكانيكية الحضة . والفيلسوف النفسي يرى امامه امورا لا تعلل بما يعرف عن جواهر الاجسام يرى انه يستحيل عليه ان يعلل القوى العقلية بانها افعال مادية محضة . وقد يستطيع العالم الطبيعي ان يعلل حركات الكواكب في مداراتها بنواميس الحركة ولكنه لا يستطيع ان يعلل كيفية وجود الاميبا (ادنى انواع الحيوان) ولا ابسط انواع الشعور وما احسن ما قاله الفيلسوف كنت في هذا المعنى وهو "ان الانسان يستطيع ان يقول اعطني مادة فاصنع لك منها ارضا مثل ارضنا ولكنه لا يقدر ان يقول انه يصنع منها ابسط انواع النبات او الحشرات ولا ان يفسر بالمادة كيفية وجود الارادة في الدودة"

ان العلوم الطبيعية تحاول رد الافعال المختلفة التي تبحث فيها الى اصل واحد فتقول ان الحرارة والنور والصوت والكهربائية كلها انواع من الحركة او القوة فهل الشعور ايضا نوع من القوة او له اصل آخر وهذا الاصل هو اصل كل الافعال الطبيعية والعقلية .

هذه مسائل تستحق البحث لكن صعوبة حلها واختلاف الباحثين فيها يشيران الى امر آخر وهو ان العقل ميال بطبعه الى توحيد الامور ورد الافعال الى اصل واحد او الى الاصول الاولى فما هي فائدة هذا الميل في الوصول الى حقائق الاشياء وهل يمكننا ان نصل الى هذه الحقائق ثم ان العقل وحده آلة المعرفة ولولاه ما كان علم من العلوم امرا قائما يحتاج الى التفسير والتعليل ونحن نجري على اسلوب واحد في كل العلوم وهو رد المعلولات الى عللها لان عقولنا اضطرتنا الى ذلك فاذا لم يوجد جد لطلب العلل ولا نصل الى العلة الاولى التي لا علة وراءها بل هي علة العلل . وما هو مناد هذا الميل فينا الى طلب العلل لكل المعلومات وما هي المعلومات وكيف تكون صحيحة فان العلوم المختلفة تستعمل معلوماتها من غير ان تبحث عن صحتها اما الفلسفة فلا تسلم الا بما تتضح لها صحته وضوح الشمس . العالم الطبيعي يضطر ان يفرض وجود اشياء

لا يحسّ بها لكي يعلل بعض ما يقع في عالم الحس فهل يجوز ذلك اي هل يحقّ لنا ان نفرض وجود موجودات لا تدرَك بالحس او نقتصر على ما يدرك بالحس . وهل نقول ما قالهُ دي بوا ريموند في الكلام عن المادة والقوة وهو ان حقيقتهما لا تدرك او نقول ما قالهُ هيكل وهو انهُ ليس في الطبيعة ما لا يمكن ادراكهُ ذلك وامثالهُ من المسائل التي تحل بالبحث عن اصل المعارف . وهذا البحث يمهد السبيل للفلسفة العقلية وما وراء الطبيعيات ويطلع الباحث المدقق على ما يزجى في فروع العلوم من كل رأي فطير . وكثيرًا ما نرى العالم الطبيعي يهزأ بالفيلسوف مستعملاً عبارات وادلة لم يعرفها لولا الفلسفة . ومثَل الفلسفة وعلماء الطبيعة في ذلك مثل الشيخ الذي حملهُ السندباد البحري على عاتقهِ من غير ان يشعر بهِ

وتاريخ الفلسفة يدلّ على انها قد ارتقت ارتقاء بيّنًا وما وقع فيها من الخطإ يفيد الباحثين لانهُ يحذرهم من الوقوع فيهِ ثانيةً فان من يعرف السبيل الذي لا يوصل الى المطلوب يستفيد من معرفتهِ في اكتشاف السبيل الموصل اليهِ

(ترجمت للمقتطف من مقالة في جريدة العلم العام الاميركية للاستاذ فرنك تلي)

البانيا[1] او بلاد الارناؤوط

ليس في هذه الايام بلاد تهدّد دعائم السلم في اوروبا اكثر من البلاد الالبانية وهي قريبة من مراكز العمران يحدها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوبًا ولها ساحل طويل يمتدّ على البحر الادرياتيكي المسمّى عند العرب ببحر البندقة الفاصل بينها وبين ايطاليا ومع ذلك لا يُعرف عنها اكثر مما يُعرف عن مجاهل الصين لصعوبة التوغل فيها. قاعدتها مدينة اشقودره على بحيرة تسمى بهذا الاسم يوصل اليها بطريق مركبات تبتدئ من بلدة كطارو في دلماطيا مارةً بستينيا عاصمة الجبل الاسود الى ان تنتهي عند ريجكا من قرى هذا الجبل فينقل منها الى باخرة تعبر البحيرة الى اشقودره ويلزم لقطع هذه المسافة يومان على الاقل . ويمكن الوصول الى اشقودره من بلدة مدو وهي ثغر البانيا على الادرياتيك

وتنقسم بلاد البانيا الى مقاطعات صغيرة يسكنها قبائل من الارناؤوط . ويتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار . والبلاد تابعة للدولة العلية وفيها حامية من

(١) معربة ببعض تصرف عن مقالة نشرها في احدى المجلات الانكليزية سائحان من الانكليز تجولا في بلاد البانيا الداخلية من عهد قريب وسطرا ما رأياهُ فيها مرأى العين